رشيد يلوح*

عرض كتاب

علام يطلق اسم فلسطين؟

المؤلّف : ألان غريش.

ترجمة : داليا سعودي.

الطبعة : الأولى ٢٠١٢.

الناشر : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة.

عدد الصفحات: ٢٥٥ صفحة من القطع الصّغير.

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

حاول الكاتب والصحافي المخضرم ألان غريش[١] أن يجيب عن سؤال "علام يطلق اسم فلسطين؟" في كتابٍ يحمل هذا الاسم ترجمته داليا سعودي، وأصدره المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في ٢٥٥ صفحة من الحجم الصّغير.

يرينا غريش في كتابه هذا فلسطين من عدّة زوايا، تبدو فيها الأرض المقدّسة على محك الصّراع بين الشّمال والجنوب، مستخدمًا في ذلك مهارته الصحافيّة البارعة في التقاط اللّحظات التاريخية، وتميّزه الأدبي باعتباره كاتبًا خبر المزاج الشرقي، وتعاطف مع قضاياه الإنسانيّة التحرريّة.

لذلك كان من الطبيعي أن يخصَّ المؤلِّف الطّبعة العربيّة لكتابه بمقدمةٍ قيّمة، طرح فيها سؤالًا ملحًا يستكشف مصير فلسطين في زمن الثّورات العربيّة، باسطًا تحليله التّاريخيّ للمراحل الكبرى التي قطعتها القضيّة الفلسطينيّة، في محيطها العربي، وما أنتجه ذلك من نكساتٍ وتحدياتٍ، لينتهي عند نتيجة تقول: ".. ولا يساور الشكُّ أحدًا في أنَّ فلسطين ستكون في قلب ذلك التّجديد وتلك التّساؤلات التي يشهدها العالم العربيّ بفضل ما بلغته من موقعٍ يضعها في قلب التّعبئة العالميّة المناهضة لنظامٍ دوليٍّ جائرٍ" (ص. ٢٠).

لكي يجيب غريش عن سؤاله الأوّل، يضعنا أمام المشهد الفلسطينيّ المتشكّل، عبر تمهيدٍ وخمسةِ فصولٍ كبرى وملحقين.

يستهلّ ألان غريش كتابه بتمهيدٍ حاول أن يتحسَّس فيه حركة التاريخ انطلاقًا من سيرته، منذ ولد في مصر في عام ١٩٥٢ إلى اليوم، مرورًا بما يشمله هذا المسار الزمنيّ من لحظاتٍ ناصريّةٍ تحرريّةٍ، وما أفرزته من مناخٍ معادٍ للصهيونية، ثم انتقاله إلى فرنسا وطنه الثّاني، لتبدأ هناك تجربته المهنيّة الفريدة. وببراعة متفوّقة يبرز غريش الخطّ الفلسطينيّ الموازي لهذا المسار، إذ تعرَّف الفتى الصّغير على عنوان "معاداة الساميّة" ضمن مناخٍ عربيٍّ يعادي الصهيونيّة الاستعماريّة، لتحتلَّ فلسطين في النهاية مكانةً مركزيّةً، ويطرح المؤلِّف سؤاله بأكثر من صيغةٍ، قائلًا: "علام تُطلق فلسطين إذن؟ أهو الاسم الذي يطلق على مشاعر معاداة الساميّة التي ما فتئت تتجدَّد وقد صادفت أرضًا خصبة ترتع فيها وتنعتق؟ أم تراه الاسم الذي يدلّ على فكرة كراهيّة الغرب التي ما فتئ العالم الإسلاميّ يغذّيها؟ أم تراه الاسم الذي بات يُطلق على نظامٍ استعماريٍّ آخذٍ في الأفول؟" (ص. ٤٦). هذه الأسئلة وغيرها هي حوافز الكاتب في ما سيأتي من صفحات كتابه.

تناول المؤلِّف في الفصل الأوّل الخلفيّة النظريّة للاستعمار الغربي، وأبرز بوضوحٍ كيف سوَّغ الأوروبيون والأميركيون لأنفسهم نهب الشعوب وتدمير الثّقافات تحت ذريعة تحريرها من التخلّف، واعتبار ذلك "فريضةً واجبةً". وخلاف كل الشعوب المستهدفة التي فرض عليها لعقودٍ البقاء في "قاعة الانتظار" التاريخية، وجد الفلسطينيون أنفسهم في مواجهة حكمٍ قضى عليهم بالخروج نهائيًا من التّاريخ.

وتحت عنوان "حين نرافق حركة صعود المستعمرين إلى أرض الميعاد"، رتّب غريش فصله الثاني، ليقدِّم فيه إضاءاتٍ للفكر الاستعماريّ الإقصائيّ، والذي أنتج في القرن التاسع عشر الحركة الصهيونيّة، فكانت اليهوديّة أوّل ضحاياها. وقد حاول غريش أن يثير في هذا الفصل مجموعةً من القضايا التي صاحبت الاستعمار الصهيوني لفلسطين، والذي عمل بقوةٍ على تكريس فكرة الدّولة اليهوديّة بكل ما تحمله من أبعادٍ عنصريّةٍ وثيوقراطيّةٍ.

> يطرح المؤلّف سؤاله بأكثر من صيغةٍ، قائلًا: "علام تُطلق فلسطين إذن؟ أهو الاسم الذي يطلق على مشاعر معاداة الساميّة التي ما فتئت تتجدَّد وقد صادفت أرضًا خصبة ترتع فيها وتنعتق؟ أم تراه الاسم الذي يدلّ على فكرة كراهيّة الغرب التي ما فتئ العالم الإسلاميّ يغذّيها؟ أم تراه الاسم الذي بات يُطلق على نظامٍ استعماريٍّ آخذٍ في الأفول؟"

في الفصل الثّالث من الكتاب، حاول المؤلِّف رصد انتقال اليهوديّة من وضع "الغيتو" إلى وضع الدّولة التي لا تقهر، وقد كان الاستعمار هو عامل هذا التحوّل الغريب، ولبسط هذا التحوّل اضطرّ المؤلِّف إلى مناقشة أكثر من فكرةٍ تتّصل بالسّياق الفكريّ والتاريخيّ الذي كان حاضنًا لذلك التحوّل. وختم غريش هذا الفصل بالإشارة إلى الدّور الذي قام به الغرب في دعم الصهيونيّة وأحلامها.

وخصَّص المؤلِّف الفصل الرّابع للحديث عن التغيّرات التي شهدها العقد الأخير من القرن العشرين، أي منذ سقوط جدار برلين وتوجّه العالم نحو البحث عن صيغٍ جديدةٍ لتجاوز المركزيّة الغربيّة، مبرزًا

١ ولد ألان غريش في القاهرة سنة ١٩٤٨، وعاش في مصر سنواته الأولى ليرحل بعد ذلك إلى فرنسا حيث واصل تعليمه، ثم امتهن الصحافة والكتابة، ودافع عن قضايا الجنوب، خاصة القضية الفلسطينية.

العناوين الكبرى التي كان لها الأثر البالغ في هذا التوجّه العالميّ الجديد، ليكشف في النهاية السّلوك الغربيّ الجائر تجاه القضيّة الفلسطينيّة، والذي حاول أن يضعها دائمًا خارج هذا المنطق التّاريخي الدّاهم.

في الفصل الخامس، يرصد ألان غريش وقوع فلسطين على خطّ الصّراع بين الشّمال والجنوب، وهي "آخر أثرٍ باقٍ للاستعمار الاستيطاني الأوروبي". وعلى هذا الأساس يمثّل اسم "فلسطين" السَّيطرة الغربيّة الاستعماريّة، ويضيف:

> وهو، من بعدها، اسمٌ لمظلمةٍ مستمرةٍ وصمها انتهاكٌ دائمٌ للقانون الدّوليّ، وهو أخيرًا، اسمٌ لمنطقٍ قائمٍ على الكيل بمكيالين، تطبّقه الحكومات، وتمرّره الأمم المتحدة، وينظر له عددٌ من المفكّرين الغربيّين، عند تقاطع الشّرق والغرب، والتقاء الشّمال والجنوب، ترمز فلسطين إلى العالم القديم الموسوم بهيمنة الشّمال، بمثل ما ترمز لولادة عالمٍ جديدٍ قائمٍ على مبدإ المساواة بين الشعوب.

ويمضي غريش في هذا الفصل متحدثًا عن اليهوديّة ومآلاتها بين الفضاء العربيّ الإسلاميّ والفضاء الأوروبيّ، معترفًا بالوضع المتميّز الذي كان لليهود في ظلّ الإمبراطوريّة العثمانيّة في الوقت الذي عانوا فيه الاضطهاد داخل القارة الأوروبية. لكنه عرّج على التحوّل الذي حصل بعد صعود الصهيونيّة واستعمار فلسطين، وما سبّبه ذلك من شيوع أفكارٍ وتصوراتٍ معاديةٍ للساميّة بين العرب في الوقت الذي تحسّنت فيه أوضاعهم وحقوقهم في الغرب. ليختم بحديثٍ عن "أحلام السّلام" العربيّ الإسرائيليّ، وإمكانيّات التّعايش بين الطّرفين، وما يعيق هذا التّعايش.

وفي الملحق الأوّل للكتاب، يعرض المؤلّف الخلفيّة الدينيّة التي حكمت الصّراع على فلسطين بين المسلمين والمسيحيّين واليهود، مدافعًا عن فكرته التي تعدّ الخلفيّة الدينيّة غطاءً لصراعاتٍ ونزوعاتٍ بشريّةٍ أخرى.

وتحت عنوان "عندما نشهد أن برنار هنري ليفي ليس فيكتور هوغو"، يكشف الكاتب التّناقضات الصّارخة للنخبة الغربيّة التي تتخلّى عن كلّ مبادئها وشعاراتها عندما تكون فلسطين هي المعنيّة في صراعٍ غير متكافئٍ، والنموذج هنا هو الكاتب الصهيوني الفرنسي برنار هنري ليفي الذي لا يخجل من الوقوف إلى جانب الجلّاد الصهيونيّ ضدّ الضحيّة الفلسطينيّ. ويورد في هذا السّياق مجموعةً من الفقرات والجمل التي كتبها ليفي ضمن مقالة إبان العدوان على غزّة سنة ٢٠٠٩، وهي المقالة التي انتهت إلى نتيجةٍ غريبةٍ ومستفزةٍ تبرّر القتل والتدمير بحجة تحرير الفلسطينيّين من حماس. ولإبراز هذه الصّورة المجحِفة والظالِمة استحضر غريش تعريف الأديب الفرنسي فيكتور هوغو الساخر "الحيادية" التي وصفها بالوقوف إلى جانب الظّالم (ص. ٢٢٢).

> حاول كتاب "علام يطلق اسم فلسطين؟" أن يقدّم إجاباتٍ مقنعة عن سؤاله، وهي إجاباتٌ تبحث عن الحقيقة في التّاريخيّ والإنسانيّ، بصوتٍ من الشّمال وجد ذاته في قضايا الجنوب، صوت نجح في كشف إفلاس الغرب أمام الاختبار الفلسطينيّ، بسبب نفوذ الثّقافة والتوجّه الاستعماريّ في نظامه الذي استصحب في موقفه جانبًا من النّخبة التي اشتغلت على قلب المفاهيم والتلاعب بالحقائق.

حاول كتاب "علام يطلق اسم فلسطين؟" أن يقدّم إجاباتٍ مقنعة عن سؤاله، وهي إجاباتٌ تبحث عن الحقيقة في التّاريخيّ والإنسانيّ، بصوتٍ من الشّمال وجد ذاته في قضايا الجنوب، صوت نجح في كشف إفلاس الغرب أمام الاختبار الفلسطينيّ، بسبب نفوذ الثّقافة والتوجّه الاستعماريّ في نظامه الذي استصحب في موقفه جانبًا من النّخبة التي اشتغلت على قلب المفاهيم والتلاعب بالحقائق.